مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 2 السنة: 2020
ص: 500 - 522 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

بلاغة الخطاب الإقناعي عند محمد العمري

The rhetoric of persuasive discourse at Mohamed El Omari

عبد الباسط ضيف *

Abdelbasset dif

مخبر اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة عمار ثليجي الأغواط

University of Laghouat- Algeria

abdelbassetdif@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/12/01	تاريخ القبول:2020/03/12	تاريخ النشر: 2020/06/02

ملخص البحث

يُعتبر البحث في بلاغة الخطاب الإقناعي من المباحث التي تُعنى باهتمام الدارسين والباحثين، وذلك لما يلعبه عنصر الإقناع من دور بارز وأساس في شتى مجالات التخاطب الأدبية والعلمية، وحتى اليومية منها. وهذا ما دفع بالباحث "محمد العمري" إلى عقد دراسة خاصة حول الخطاب الإقناعي، بالعودة إلى مضانه وربطه بالبلاغة العربية التي كانت ولا تزال ملتقى لعلوم مختلفة، ومن جملتها الخطاب الذي بات يمثل مرجعا لا غنى عنه في إحداث التواصل، ولغةً لا بديل عنها في حصول الفهم والإفهام، فكانت عناية العمري منصبة حول بلاغة الإقناع وما يؤديه المقام ضمن دائرة التخاطب.

الكلمات المفتاح : بلاغة، خطاب، إقناع، محمد العمري.

Abstract :

The researchers are interested in the rhetoric of persuasive discourse because of the important role of the conviction in different fields; literary and scientific even daily ones. Thus, Mohamed El Omari is motivated to hold a special study on persuasive discourse and return to its resources and to link it to Arabic rhetoric which is a meeting to different sciences such as the discourse that becomes an essential resource to create communication and an irreplaceable language to understand and explain. El Omari is focused on the rhetoric of persuasion and what the situation can effect at the discourse level.

* عبد الباسط ضيف abdelbassetdif@gmail.com

Keywords: rhetoric, discourse, persuasion, Mohamed El Omari.

مقدمة:

تعد بلاغة الإقناع مطلبا رئيسيا في دراسة الخطاب، الذي أضحى يشكل اليوم نافذة مطلة على حقل الأدب عموما، وعلى أرض البلاغة خصوصا، على غرار اقتحامه لعلوم سياسية وقانونية وإدارية...ليكون موضوع مقالنا هذا، طارحا لفكرة جوهرية تُعنى بإماطة اللثام عن الخطاب، وتحديد مكنوناته داخل بنى الكلام. وحتى يكون مقالنا مشقّعا ومشبعا، اعتمدنا على الدراسات التي أولاها "العمري" لبلاغة الخطاب لما له من قيمة مضافة تكمن في تضمنه للقصدية التي يراد بها التأثير وإحداث التفاعل والتواصل بين الأطراف، ولا يمكن أن يُعدّ خطاب ما خطابا حقيقيا إلا إذا كان موجها للغير ويراد به التأثير، وثمّة جوهر الخطاب، وهذا ما حذا بالباحث "محمد العمري" إلى الخوض في بلاغة الخطاب واعتبار الإقناع سمة تميز كلّ أنماط الخطابات على تباين أجناسها، وتعدّد ألوانها، فعقد المقارنات بين التراث العربي والغربي، وبيّن الفاعلية التي يستند عليها الخطاب انطلاقا من وقوفه على أصناف هذا الأخير، وأهمّ المقامات التي يقوم عليها. وهذا مايدفعنا إلى صياغة إشكالية عامة تتمثل أساسا في: مامدى الدور الذي يضطلع به الإقناع كسمة بارزة في الخطاب الأدبي عموما، وفي الخطاب البلاغي خصوصا ؟

لتنبثق عن هذه الإشكالية العامة إشكاليات جزئية تتابعت كالآتي :

_ ماهي الصور التي قامت عليها بلاغة الإقناع عند : محمد العمري ؟ أم أنها صورة واحدة ؟

_ كيف هي طبيعة الأثر الذي يخلّفه الإقناع في عملية التخاطب ؟

_ وهل للمقام دور في تبيين نمط الخطاب وتوجيهه ؟

وللإجابة عن هذه الإشكاليات. اعتمدنا على جملة من العناوين الفرعية التي رتأينا أنها تصب في مسار المقال، حيث تطرقنا إلى ماهية الخطابة، والمفهوم الذي اتخذه الإقناع في الثقافتين: العربية والغربية. مما يقودنا إلى ضرورة الحديث عن الأثر الذي يخلّفه في عملية التخاطب، وصولا إلى التعدد الحاصل في المقامات التي يقوم عليها، وأهم النتائج التي توصل إليها الباحث: محمد العمري في دراسته لبلاغة الخطاب الإقناعي.

– بلاغة الإقناع:

اهتم" أرسطو" كثيرا بالخطابة وعدّها صناعة تتصدر كل الصنائع الإنسانية، وذلك راجع إلى دور الإقناع البارز فيها. "وقد اكتست الخطابة هذه المكانة من دورها في الحياة اليونانية القائمة على نظام ديمقراطي يلعب فيه الإقناع دورا مهما سواء في المجالس الاستشارية أو المحاكم أو المحافل" [1].

وحسب كلام "العمري" فإن الخطابة اليونانية لم تكن لتقوم لولا الإقناع الذي بات بلاغة يروّج لها، وصنعة يسعى كل خطيب أن يحسنها، وهذا ما جعل "أرسطو" يعرفها تعريفا يصفها بالقوة التي تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة، وبهذا التعريف يكون قد أسّس لبلاغة الإقناع في الحضارة الغربية، وللحضارة العربية التي استلهمت الكثير من آرائه. "وبهذا التعريف وما استتبعه من بحث في وسائل الإقناع والتأثير صار أرسطو أستاذا لمن بحث بعده في موضوع الخطابة من القدماء، واكتست نظريته في التأثير حسب الاحتمال، وما يقبله الجمهور أو يرفضه، أهمية كبيرة عند المحدثين"[2]

لقد سعى "أرسطو" إلى توضيح ماهية الخطابة، وأهم الأسس التي تقوم عليها لإخراجها من دائرة السفسطة التي التصقت بها لفترة من الزمن، وتوجيه الخطابة وجهة تقوم على الإقناع والتأثير. "وقد أعاد أرسطو الوضع إلى نصابه حين فرق بين الخطابة والسفسطة من جهة، وبين الخطابة والجدل، من جهة ثانية، معتبرا البلاغة تقنية تقدم الوسائل المناسبة للإقناع في كل حالة حدة، فهي أشبه بالطب؛ أي أنها لا تقدم الشفاء قطعا وفي جميع الأحوال (كما يزعم السفسطائيون)، بل تقدم وسائل العلاج في كل حالة على حدة"[3].

كما يحيلنا "العمري" إلى نقطة بالغة الأهمية، تتمثل في التعدّد الذي يحصل لبلاغة الإقناع، فلا تكون واحدة في نسقها، وذلك يعود إلى طبيعة الخطاب في حد ذاته، فالبلاغة اليوم لم تعد تلك البلاغة الأحادية التي تركن إلى زاوية ضيّقة، بل أضحت البلاغة بلاغات، وكلّ بلاغة تختصّ بخطاب مخصوص، وكل خطاب مخصوص له متوالية من الأقوال و الملفوظات التي يرجى منها إحداث نوع من التواصل الذي يتوّج ببلاغة الإقناع. "وبفضل الجهود المبذولة في مجال كشف

النسق البلاغي وفاعليته في مجالات الخطاب المتعددة، وبفضل الدقة التي يتميز بها التناول البلاغي للخطاب، نلاحظ أن البلاغة صارت اليوم منطقة مشتركة بين العلوم، تصدر مفاهيمها إلى المجالات الأخرى، فأصبح لكل خطاب بلاغة. ذلك أن لا علم يستغني عن البلاغة باعتبارها أداة الفهم والإفهام وأداة التأثير والاستمالة"[4]. إلاّ أنّ هذا الطرح الذي تفضّل به "العمري" يجعل من البلاغة وسيلة لا غاية في حد ذاتها، وهذا ما يعجّل فتورها واضمحلالها، وفي كثير من الأحيان انحيازها لمجال دون آخر. إنّ الحديث عن إمكانية قيام بلاغة عامة تستوعب كلّ المجالات اللغوية والمعرفية مرهون بالقيمة الدلالية التي ينطوي عليها الخطاب، والتي تستقى من اللغة في حد ذاتها، فالاستخدام الجيد لها من شأنه أن يحدد وظيفتها وعملها " أن الدلالات اللغوية تتأثر بشروط استخدام اللغة، وهي شروط مقنّنة ومتحققة في اللغة.(...) لا نفهم دلالتها إلا إذا نظرنا إلى العمل اللغوي الذي تصفه وتعدّله "[5] ذلك أن تحديد الجانب اللغوي طريق لتحقّق بلاغة الإقناع، والتي تتفاوت درجاتها قوة وضعفا.

وانطلاقا من ذلك كله تتواجد بلاغة الإقناع بصور متفاوتة في الخطاب الذي يراد به إحداث التواصل في مجتمعنا المعاصر، وعلى هذا حظيت باهتمام الدارسين على اختلاف وتباين الرؤى والتوجهات من مجال إلى آخر، وتبعا لذلك تزيد حدّة الإقناع الذي بات مطلبا ملحا في كل التخاطبات، حتى اليومية منها. وهذا ما جلب انتباه الباحث "محمد العمري" فهيّأ نفسه وقلمه للخوض في بلاغة الخطاب الإقناعي. "وبالنسبة إلى الدراسات البلاغية العربية المعاصرة، يمكن أن نستحضر كتاب محمد العمري: "في بلاغة الخطاب الإقناعي" الذي صدر أواسط العقد الثامن من القرن الماضي، وأعيد طبعه سنة 2002، وفيه يلاحظ افتقار المكتبة العربية إلى دراسات للخطاب الإقناعي، وفي الواقع، يعتبر هذا الكتاب، إلى جانب بعض الدراسات والرسائل الجامعية، من الأعمال القليلة التي تولي اهتماما لهذا الموضوع"[6].

ونسجل اختلافا بين الغرب والعرب في تعاطيهما مع بلاغة الإقناع، إذ يرتبط الإقناع عند الغرب بالخطابة التي أرسى قواعدها وحدّد أجناسها "أرسطو"، في حين نجد أن الإقناع عند العرب شديد الصلة بعمليتي الفهم والإفهام، وذاك هو البيان الذي جاء به "الجاحظ". "نسجل هنا ملاحظة تبدو لنا ذات أهمية كبيرة، وهي أن كلمة بلاغة ظهرت في تاريخ وصف الخطاب في اللغة العربية في الحقل نفسه الذي ظهرت فيه في الريطورية (الخطابية) عند اليونان وهو الخطابة. ولا

يتعلق هذا الاستنتاج بقضية الأثر والتأثر والتبعية والأسبقية، بل يتعلق بطبيعة الخطابة نفسها. لقد كان من المعقول تفرع البلاغة عن البيان؛ فتحول البيان إلى بلاغة يعني تقديم الإفهام على الفهم، إن لم يعن التخلي عن الفهم لصالح الإفهام نهائيا، أي الخروج من نظرية المعرفة إلى نظرية الإقناع"[7]. إنّ هذا الكلام الذي ساقه "العمري" من شأنه أن يفرغ البلاغة من روحها، فتغدو بذلك بلاغة محنّطة تُعنى بالشكل على حساب المضمون، بلاغةٌ تحمل همّ التأثير في المتلقي، لتحول دون استزادته معرفيا ولغويا. إلاّ أنّ "العمري" يؤكد على ذلك الانتقال النوعي الذي قفز بالبلاغة العربية من بلاغة تُعنى بالمحسنات و الزخارف اللفظية إلى بلاغة تُعنى بعملية الفهم والتأثير في المتلقي. "ولعل هذا ما جعل الجاحظ، وهو يحمل هم الإقناع حسب الأحوال، يرد البيان، كما سبق، إلى الفهم، ثم يقايضه بالبلاغة وكأنه يتحدث عن شيء واحد، ثم يرهن البلاغة بمراعاة الأحوال مقايضا إياها بالخطابة. فالبيان هو الفهم، من جهة، وهو إظهار الحجة، من جهة ثانية"[8]. وهذا كفيل بأن يجعل من البلاغة إقليما شاسعا مترامي الأطراف، تتنازعه أقطاب عديدة، متباينة حينا ومتجانسة حينا آخر.

2- البعد الإقناعي للبلاغة العربية:

لم تعرف البلاغة العربية طيلة قرون من الزمن استقرارا في المفهوم، وظلت تتأرجح بين عدّة توجهات جعلتها لا تقف عند نسق واحد، بل تعددت أنساقها ودلالاتها، وذلك راجع إلى انصهارها مع علوم أخرى. "من أسباب اضطراب مفهوم البلاغة كونها ملتقى لعلوم مختلفة لكل منها علاقة بالخطاب وحاجة إلى استنطاقه وكشف جانب من أسراره. ولذلك كان حازم القرطاجني يعتبر البلاغة، بحق، "علما كليا" يستند إلى علوم أخرى لا بد من تحقيق الكفاية منها قبل اقتحامه، وهي علوم اللسان بما فيها من نحو و استدلال. ولهذا الاعتبار شبهها بالطب، وشبه المتسرع في معالجة قضاياها بالشخص الذي قضى ليلة في مطالعة كتب الطب، وفي الصباح حرر وصفة لصديقه المريض فعجل برحيله إلى العالم الآخر، وكان حازم ينظر، في هذه الصورة، إلى علماء الكلام الذين ينطلقون من بعض مبادئ البلاغة للحسم في قضايا عقدية عويصة. غير أن الإحاطة بكل العلوم المتداخلة في المجال البلاغي مما تضيق به الأعمار وتنقطع دونه أسباب الأفراد" [9]. ويستوقفنا هاهنا ما نقله "العمري" عن "حازم القرطاجني" حين اعتبر البلاغة علما

كليا، فهذا الطرح يصعّب ضبطها واستيعابها ورسم حدودها، كما يجعلها شديدة الالتصاق بغيرها، أي وقوعها في ظل التبعية. فلا تستقيم إلاّ باستقامة العلوم المحيطة بها.

إنّ هذا التداخل الحاصل بين البلاغة وعلوم أخرى من شأنه أن يحدّ من فعالية البلاغة، ويعجّل بأجلها، فكثيرا ما جنحت البلاغة العربية في عصور خلت إلى تغيير وجهتها من مسار إقناعي يقوم على الفهم والإفهام، إلى مسار جمالي يقوم على الإبلاغ وتحسين الصورة. "يمكن تتبع هذا الأمر بجلاء في الثقافة الحديثة، منذ بداية عصر النهضة إلى الآن. فبعد ازدهار وتوسع عرفتهما البلاغة القديمة، عربية وغربية على حد سواء، ساهمت ظروف مختلفة في انكماشها، فتخلت عن مناطق واسعة كانت تحت سلطتها، خاصة في مجال الإقناع. وبذلك صارت مجرد لوائح من الصور البديعية منفصلة عن النص والإنسان تحمل معها نصا محنطا، في شكل أمثلة مكرورة مفتعلة، وتخاطب إنسانا لم يعد له وجود في هذا العصر" [10]. إلاّ أن هذا لا يعني البتة حصول تغييب كامل للبلاغة بحجة ركونها إلى جانب دون آخر، فلقد كانت البلاغة ولا تزال إلى اليوم أداة للتعبير، وقناة ناقلة للآراء والمفاهيم التي يراد بها التواصل تحقيقا للتفاعل بين كل الأطراف والنخب. " من هنا تنبثق أهمية البلاغة بوصفها الأداة الأكثر إنسانية في تواصل الأفراد داخل المجتمع وتواصل الشعوب داخل هذا العالم الذي يحتويهم."[11]

أما "العمري" من خلال كلامه السابق فينقلنا إلى معايشة البلاغة التي لم تعرف – حسب رأيه- توازنا في المفهوم، وبالتالي "فإن عملية البحث عن بعد إقناعي لها يظل أمرا مؤجلا لا يمكن الفصل فيه، إلا بالعودة إلى المصطلحات والمفاهيم التي عرفتها البلاغة قبلا، ومن جملة ذلك اقترانها بالصور البديعية التي جاء بها "ابن المعتز". فإن أول كلمة تربعت فوق مجموعة من المصطلحات المرصودة لوصف الخطاب من زاوية الخصوصية التعبيرية هي، فيما أعلم، كلمة بديع. كان ذلك في القرن الثالث الهجري مع عبد الله بن المعتز (...) وظل مصطلح "بديع" يتغذى من النقد التطبيقي والخصومات الأدبية أكثر من أربعة قرون، موسعا دائرة نفوذه لتضم كل صور التعبير ووجوهه اللسانية، غير عابئ بمقامات القول ومقاصده، أي بالأبعاد التداولية للخطاب [12]".

إن حصر البلاغة في جانب من الصور البديعية ومحسنات الكلام تغييب للبعد التداولي الحجاجي، وحضور للبعد التخييلي الشعري، وبذلك تكون وجهة البلاغة ممثلة في جانب إمتاعي

صرف، لا يقيم وزنا للجانب الإقناعي. وذلك ما نوّه به "العمري" في سياق حديثه عن البديع وإقصائه لمقامات القول ومقاصده. "ولكن لا أحد من البديعيين خاض في الأبعاد المقامية والحجاجية "[13].

إذا ما أردنا أن نفتّش عن ذلك البعد الإقناعي في بلاغتنا العربية، فلا سبيل لنا إلا بالطّرق على باب البيان والتبيين لـ "الجاحظ" الذي عُد بحق من الأوائل الذين تفطنوا لآلية الإقناع وما يلعبه من دور بارز في عملية التخاطب، وهذا ما أشار إليه "العمري" في قوله: " الكلمة الأخرى التي تربعت على مجال خطابي متميز وأنتجت لائحة مصطلحية دالة على علم جديد، قبل استقرار مصطلح بلاغة، هي كلمة بيان. كان ذلك أيضا في القرن الثالث الهجري، مع الجاحظ، المتوفى سنة 255 هـ، في كتابه البيان والتبيين، أي بحوالي عقدين قبل ابن المعتز" [14]. فلقد اهتم الجاحظ بالبيان وربطه بعمليتي الفهم والإفهام في محاولة جادة منه للتأسيس لمشروع بلاغي يضع البيان ممثلا شرعيا للبلاغة، ولا يكون ذلك إلا إذا تحققت في البيان وظيفة التأثير و الإقناع. " لقد نص الجاحظ حين تصدى لتعريف البيان على أنه فهم وإفهام، (...) فالأمر يتعلق بإيضاح المعنى القائم في النفس حتى يدركه الآخر. وقد وصل الجاحظ إلى هذا المعنى انطلاقا من الوظيفة الأولى للغة وهي التواصل وكشف الكامن في الصدور، ولذلك فقد مهد لمطابقة البيان بالفهم" [15].

نستشف من هذا الكلام أنّ "الجاحظ" أولى عناية كبيرة لبلاغة الخطاب الإقناعي القائمة على الإفهام والتأثير في المتلقي، وذلك من أجل حصول الوفاق بين أطراف الخطاب، وهذا ما أكده "العمري" بقوله:

"فقد ظهرت النواة البلاغية الخطابية الأولى التي توازي كتاب البديع وتعادله في القرن الثالث الهجري هي الأخرى، نقصد بذلك كتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت.255هـ). وهو كتاب مؤسس للحجاج وبلاغة الخطاب الإقناعي، ولا علاقة له بنقد الشعر كما بينا في الفصل المخصص له في كتاب البلاغة العربية. لقد تدرج الكتاب في تعريف البيان من الإفهام إلى التأثير والإقناع حسب المقامات" [16].

يحيلنا "العمري" بهذا الكلام إلى الدور الفاعل الذي يلعبه المقام في تحديد نوعية الخطاب الذي يُلقى، ومن ثم فإن البعد الإقناعي المصاحب للخطاب يكون على درجة من القوة أو الضعف بحسب اعتبارات المقام الذي نوه به "الجاحظ" واعتبره أساسا تبنى عليه عملية الفهم

والإفهام. "وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال" [17].

تظهر مراعاة المقام عند "الجاحظ" في حديثه عن الخطيب وما يجب أن يراعيه أثناء التخاطب، ليظل الإقناع تابعا ومردودا لطبيعة المقام، ويؤكد "العمري" على أن طبيعة الإقناع تتحدد حسب المقامات والأحوال. [أن الغاية القصوى عند الجاحظ [في كتاب البيان والتبيين] هي الخطاب الإقناعي الشفوي. وهو إقناع تقدم فيه الغاية (الإقناع) على الوسيلة (اللغة) وتحدد الأولى طبيعة الثانية وشكلها حسب المقامات والأحوال] [18]. فتحديد البلاغة بعنصر المقام تأكيد وتحقيق للواقع من جهة، وإلغاء لكلّ صور الإبداع والتخييل من جهة أخرى.

ومما تقدم ذكره نجد أن البعد الإقناعي حاضر بقوة في بلاغتنا العربية، وهذا ما جسده "الجاحظ" بعمق في مصنفاته وعلى رأسها البيان والتبيين. " يقدم الجاحظ تصوره لبلاغة إقناعية قائمة على الصواب اللغوي والتوسط البلاغي في حوار مع المقام "[19].

" ويمثل الجاحظ الوجهة الأولى، فتناول استراتيجية الإقناع في كتابه البيان والتبيين "[20].

3- فاعلية الخطاب:

يعد الخطاب منتجا لغويا يرجى منه تحقيق سمة تواصلية بين الأطراف المتحاورة، وتكمن فاعليته في ذلك الأثر الذي يخلفه بعد كل عملية تخاطبية. وقد يكون موضوع الخطاب واحدا وقد يتعدد، وفي كثير من الأحايين يتغير مسار الخطاب بفضل التفاعل الحاصل بين الأطراف فيغدو مناظرة. " وكانت العادة في الجاهلية وجزء من الصدر الأول للإسلام أن يتواجه الخطباء في الأسواق وعلى المنابر للتخاطب في مواطن الاختلاف. ثم صارت هناك مقامات دينية وسياسية وعلمية تفرض الحديث من جهة واحدة، فغلب مفهوم "الخطبة" وحيدة الاتجاه، وهذه هي التي اتخذت موضوعا للتنظير البلاغي عند "علماء الخطابة" ثم تدخلت عناصر معرفية في تسمية الصنف التفاعلي "مناظرة"، من تبادل النظر في موضوع " [21].

يفهم من كلام "العمري" أن الخطاب يتخذ عدة أشكال بحسب صنف المقام الذي يطلق فيه، وتبعا لذلك فقد يكون موضوع الخطاب واحدا وقد يتعدد، كما يضيف عنصرا مهّما له قدرة كبيرة في إضفاء الحركة والديمومة على روح الخطاب، يتمثل هذا العنصر في التفاعل الذي يحدث بين الأطراف أثناء التخاطب. وإذا بلغ هذا التفاعل درجة من القوة فإنه يتحول إلى مناظرة، والتي

عدها "العمري" "خطابة حجاجية". وسنحاول ما أمكن الربط بين أحوال المخاطبين. " فيمكن تقسيم الخطابية الدينية؛ إلى ثلاثة أصناف وذلك حسب المتلقي وحسب الرسالة الموجهة إليه. فهو إما أن يكون خالي الذهن يتقبل المعرفة الملقاة إليه وهذه الحالة اقتضت خطابة تعليمية، وإما أن يكون متناسيا لما تعلم غافلا عما ينتظره فيتطلب حاله الحث على العمل والتخويف من العقاب وتلك هي الخطابة الوعظية. وإما أن يكون عالما مخالفا وجاحدا لوجهة نظر الخطيب وفي هذه الحالة لا بد من المحاجة، والبرهنة وتلك الخطابة الحجاجية أو المناظرات " [22].

وهذا النوع الأخير الذي أشار إليه "العمري" هو ما يدخل ضمن إطار المناظرة، إذ حصرها في الخطاب الحجاجي الذي يعقد بين الطرفين، أحدهما جاحد منكر لما يسمع، فيعمد الآخر إلى مقارعته و مناظرته حتى يعدل عن رأيه أو فكرته، ويورد "عبد اللطيف عادل" كلاما يصف فيه هذا التخريج الذي أعدّه "العمري" في سياق حديثه عن الخطابة الحجاجية (المناظرة). " بحسب هذا التخريج، فإن المناظرة خطابة حجاجية، تسائل جحود المخاطب، الذي يفترض فيه أن يكون ملما بالموضوع عالما به، ولكنه منكر لموقف مناظره بخصوصه. وهكذا فإذا كانت الخطابة بشكل مطلق تستهدف الجموع والعوام ، فإن المناظرة خطابة خاصة، وهو الأمر الذي تفسره المجالس المغلقة التي شكلت فضاء المناظرة، بحيث يكون الحضور مقصورا على العلماء والمتخصصين والأدباء... ومن ثم، فالمناظرة خطابة فكرية ومذهبية جسدت الحركة المعرفية التي سرت بشكل دينامي في المجتمع العربي والإسلامي " [23].

إلى جانب المناظرة هناك صنف آخر تفرزه فاعلية الخطاب يتمثل أساسا في: القول الشعري الذي يأخذ شكل الخطاب الشعري والذي يقوم بوظيفة شعورية، إذ يرتبط بالمشاعر والأحاسيس التي تعبر عن التجربة الفردية أو الجماعية للأفراد، ويمكن أن نعدّ الأقوال الشعرية أحد أصناف الخطابات التفاعلية. " وإلى جانب هذا الخطاب التفاعلي كان هناك صنف آخر من القول بدا وكأنه يسير في اتجاه واحد، هو القول الشعري. وهو مرتبط بالشعور باعتباره معرفة مبنية على المعاناة الشخصية " [24].

وتكمن فاعلية الخطاب الشعري في تحقيقه لوظيفة تواصلية، وبدونها يفقد حضوره ضمن الإطار العام للخطابات. ولا بد من حضور الوظيفة التواصلية وإلا فقد الشعر انتماءه للغة.

"وهذا التصور يمكن أن يعبر عنه بمفاهيم الهيمنة عند ياكوبسون، فالخطاب الشعري خطاب لغوي تواصلي تهيمن فيه الوظيفة الشعرية دون أن تغيب الوظيفة التواصلية "[25].

وبناء على ذلك نشير إلى أن فاعلية الخطاب لا تتوقف عند خطاب واحد شعريا كان أم نثريا، بل تتعدد الخطابات، فكل خطاب له جملة من الأقوال تميزه عن أي خطاب آخر. " وهكذا أصبحنا أمام استعمالات واسعة لكلمة خطاب دالة على الكلام من أسفل السلم إلى أعلاه، مشيرة إلى بنائه أو محتواه: الخطاب الشعري، الخطاب التداولي، الخطاب الديني، الخطاب الفلسفي، الخطاب الروائي، الخطاب المسرحي، الخطاب السينمائي، الخطاب الإشهاري، وصولا إلى خطاب الصورة وخطاب المقدمات... الخ " [26].

وبذلك تتضح معالم الخطاب، ليشمل جميع المجالات والتخصصات، وقد يعبّر عنه بالحوار، كونه يعقد بين أطراف متحاورة في قضية ما. وهذا ما دفع بـ "العمري" إلى اتخاذ الحوار شكلا من أشكال الخطاب.

" الحوار، في معناه العام. خطاب (أو تخاطب) يطلب الإقناع بقضية أو فعل. وفي معناه الخاص: كل خطاب يتوخى تجاوب متلق معين، ويأخذ رده بعين الاعتبار من أجل تكوين موقف في نقطة غير معينة سلفا بين المتحاورين؛ قريبة من هذا الطرف أو ذاك، أو في منتصف الطريق بينهما. صورته المثلى مناقشة بين طرفين أو أكثر، وقد يكون تعقيبا بعد حين على صفحات الجرائد أو غيرها من وسائط الاتصال التي تتيح فرصة للتعليق على رأي الآخرين، وقد يكون في أي صيغة أخرى "[27].

ومما تقدم ذكره نخلص إلى أن "العمري" أولى عناية فائقة بالخطاب، مبينا الأشكال التي يتخذها (مناظرة، حوار، أقوال شعرية...) وهنا ترتسم فاعلية الخطاب.كما تجدر الإشارة إلى نقطة بالغة الأهمية يتضمنها الخطاب عينه، إذ تعدّ نتاجا لفاعليته، تكمن أساسا في الحجاج الذي أضحى سمة وعلامة فارقة تميّز شتى أنواع الخطابات، فلا فاعلية للخطاب، ولا تحقق للإقناع دونه. وربما هذا مايجعل البحث عن فاعليةٍ للخطاب أمرا مرهونا بمدى تحقق درجة الحجاج فيه. " غير أن الحجاج يمثل مجالا من النشاط اللغوي الذي شدّ إليه الأنظار على مرّ الأيام منذ بلاغة القدامى الذين جعلوا منه الأساس ذاته للعلاقات الاجتماعية (فنّ الإقناع) حتى يومنا هذا حيث أصبح

من جديد أسلوبَ العصر؛لسببِ ذلك مثّل مصطلح (الحجاج) موضوعا تأسّس عليه عدد كبير من المفاهيم ممّا جعل دراسة هذه الظاهرة اللغوية وتقديمها أمراً من العسر بمكان."[28]

4- مقام الخطب:

4-1 الخطابة الدينية:

إن الغاية التي ترام من الخطابة – مهما تعددت أصنافها وألوانها- هي الإقناع، الذي صار آلية يعوّل عليها كثيرا في أي خطابة كانت، وسنحاول التطرق إلى الخطابة الدينية التي شاعت كثيرا مع ظهور الإسلام، فكانت أحد العوامل الهامة التي ساهمت في نشره، وتبيين الحق من الباطل، حتى أضحت صناعة يشتغل بها الكثير من الخطباء، وانقسمت إلى أصناف عديدة، وهذا الانقسام يعود أساسا إلى المقام الذي أطلقت فيه الخطبة. " فيمكن تقسيم الخطابة الدينية إلى ثلاثة أصناف وذلك حسب المتلقي وحسب الرسالة الموجهة إليه. فهو إما أن يكون خالي الذهن يتقبل المعرفة الملقاة إليه وهذه الحالة اقتضت خطابة تعليمية، وإما أن يكون متناسيا لما تعلم غافلا عما ينتظره فيتطلب حاله الحث على العمل والتخويف من العقاب وتلك هي الخطابة الوعظية. وإما أن يكون عالما مخالفا وجاحدا لوجهة نظر الخطيب وفي هذه الحالة لا بد من المحاجة، والبرهنة وتلك الخطابة الحجاجية أو المناظرات "[29].

وبهذا الكلام يكون "العمري" قد حدد الأصناف التي تقوم عليها الخطابة الدينية، وجدير بالذكر أن كل صنف من الأصناف المذكورة آنفا (التعليمية، الوعظية، الحجاجية) يرتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة القول الذي يمارس سلطة على الخطيب في انتقاء سلسلة من الأقوال والملفوظات التي تصلح أن تقال في خطبة دون غيرها، فلكل خطبة جنس مخصوص من الكلم، وذلك ما حاول "العمري" توضيحه في كتابه " في بلاغة الخطاب الإقناعي" من خلال استلهام آراء "أرسطو" في تقسيمه للخطابة وإسقاطها على نماذج من الخطابة العربية في القرن الأول. " فقد حاول محمد العمري تطبيق نظرية الإقناع عند (أرسطو) على نماذج من خطابة القرن الهجري الأول، متبعا في ذلك تقسيم أرسطو الثلاثي لعناصر الخطابة، وهي : وسائل الإقناع أو البراهين، والأسلوب أو البناء اللغوي، وترتيب أجزاء القول. بيد أنه صنف الخطابة إلى دينية وسياسية، وذكر ما يندرج تحت كل صنف مثل الخطابة الوعظية والمناظرات المذهبية وحوار الأنداد والراعي مع الرعية، كما عرض لكيفية توظيف بعض الشواهد الجاهزة، مثل آيات القرآن الكريم والأحاديث والأمثال " [30].

وإذا ما أمعنّا النظر في التقسيم الذي اعتمده "العمري" للخطابة الدينية نجده يعتدّ بعنصر المقام الذي يعدّ مؤشرا فعّالا في الحكم على الصنف المقصود من الخطابة، وينتصر له على حساب النص، وهذا مدعاة لإضعاف البنية اللفظية وإخراج الخطاب في صورة مهلهلة، حتى وإن وافق متنه مقام الحال. " يتوجب على المتكلم أن يأخذ بعين الاعتبار أن الشكل الذي يقترحه نص ما على مخاطبه لا يحدده النص نفسه، بل يحدده المقام، ذلك لأن الخطاب مشروط بالحاجة التي يلبيها، ولهذا تكون بنيته اللفظية والتركيبية والدلالية والبلاغية موضع تركيز واهتمام من قبل المتكلم. فالخطاب هو فعل تلفظ، وهذا يعني ضرورة استحضار المتكلم، لكنه فعل إقناع وتأثير أيضا، وهذا ما يفرض استحضار المقام وأخذه بعين الاعتبار عند إنتاج الخطاب "[31].

واعتمادا على فكرة المقام، فإن الخطابة الدينية تتنازعها ثلاثة مقامات:

- **مقام التعليم:**

وأول مقام تعرّض له "العمري" في مطلع حديثه عن الخطابة الدينية، مقام التعليم الذي يراه مقاما يحصل فيه وفاق بين طرفين: طرف ملقٍ وآخر متلقٍ، وذلك لما يكون بينهما من الرضا والقبول بحكم العلاقة التي تجمع بينهما، علاقة تبنى بين الخطيب وجمهوره أو المعلم وتلامذته، وبذلك يتطلب مقام التعليم تراوحا بين الأسلوبين الخبري والإنشائي، وهنا لا حاجة إلى حضور الحجاج، لأن الخطيب ليس في مقام المحاججة أو المقارعة، بقدر ما هو في مقام توجيهي إرشادي. " ويفترض أن يكون المرسل والمتلقي فيها في حال عطاء وتقبل، فإن تحقق ذلك كان الخطاب ابتدائيا (منطقا وأسلوبا)، وذلك أظهر في الرسائل منه في الخطب، وإذا ما أحاطت بالخطيب ظروف خاصة صاحبت الابتدالية عناصر تأكيد وإقناع، فصارت الخطبة تتراوح بين الإخبار والتأكيد الإنشائي، وهذا هو الطابع الغالب عليها. وقلما بحثت هذه الخطابة عن عناصر المنطق والحجاج أو اهتمت بتجميل الأسلوب. بل تستثمر عناصر التأكيد والأمر والنهي والعرض وغيرها من أدوات الجملة الإنشائية "[32].

- **مقام الوعظ:**

إذا ما كان مقام التعليم يراد به حصول المخاطب على قدر معين من المعارف التي تجد قبولا عنده في تلقيها والتفاعل معها، فإن مقام الوعظ يتجه إلى المخاطب بصفة قصدية لإخراجه من دائرة الغفلة والسهو والنسيان ومن ثم حثه على العمل ترغيبا في الثواب وترهيبا من العقاب. " ولذلك قام الوعظ

في أول الأمر على المزاوجة بين الوعد والوعيد كما هو الشأن في بعض مواعظ علي بن أبي طالب الذي يذكر بعذاب الآخرة حتى إذا رأى تغير أحوال مستمعيه وخوفهم ذكرهم بالنعيم " [33].

ويشير "العمري" إلى أن هذا الطابع (الوعد والوعيد) الذي غلب على المقام الوعظي في البدايات الأولى لظهور الإسلام لم يعرف الاستقرار، فمع توسع رقعة الإسلام وتغير الأحوال ظهرت فرقة من العباد اتجهت إلى الزهد في الدنيا واتخذته مطية إلى الآخرة، وهذا ما نستشفه في خطبهم التي يدعون الناس فيها إلى الزهد في نعم الدنيا لأنها أعراض زائلة، والتشبث بنعم الآخرة لأنها خير وأبقى. " غير أن الخطابة الوعظية لم تحتفظ على هذا التوازن إذ ما إن توسعت الإمبراطورية الإسلامية وتغلب الاتجاه إلى الحياة وشؤونها حتى ظهر رد فعل طائفة من العباد مالوا إلى التقشف والنقمة على الحياة وروادها، فأصبحت العلاقة بين المرسل والمتلقي متوترة يسودها الاتهام ويطبعها التشاؤم (...)وبذلك أصبح المعنى الملح على الخطباء والفكرة الجوهرية في خطبهم هي زوال الدنيا وخداعها، وبقاء الآخرة وضرورة التزود منها، مع الإكثار من ذكر فساد أحوال الناس، والتذكير بأحوال الأمم الماضية "[34].

- **مقام المناظرات :**

أما عن مقام المناظرات فهو مقام يشهد حضورا بارزا وفعالا للحجاج وآلياته، إذ يعد هذا الأخير مطلبا ملحا في الصراعات المذهبية والطائفية. " ولقد ظل الحجاج باستمرار محركا هاما لمستويات الحوار وتجاذب أطرافه، وظل عنصرا منشئا مفسرا للصراعات أو التوافقات بين المتخاطبين طيلة أطوار الحوار " [35].

وإلى جانب الحجاج تستند المناظرات على طرق البرهنة وعناصر التأويل التي يتطلب توافرها لدى المتلقي. إذ يعدّ حلقة مكمّلة ومدعمة للدور الذي يضطلع به المرسل، فإذا فقد المتلقي عنصر التأويل وما يتطلبه من آليات ودرجات من القوة والضعف، فذلك مدعاة إلى ضياع المقاصد والدلالات التي يرومها المرسل الذي يملك كفاءة تُعنى بالتبليغ، ويتوخى قبولها لدى المتلقي الذي يملك هو الآخر كفاءة تُعنى بالتحليل والإدراك. " فإنها تتجلى الكفاءة التداولية للمرسل إليه عند تأويل الخطاب للوصول إلى مقاصد المرسل وإدراك حججه " [36].

وفي هذا المقام يقول "العمري" : "إن المخاطَب في المناظرات ينتمي إلى الصنف الثالث من المخاطبين حسب تصنيف ابن رشد، أي أنه من المقتدرين على التأويل الذي يتطلب إقناعهم برهنة (وحكمة). وهو من جهة أخرى موضوع موضع المنكر الجاحد، حسب تصنيف البلاغة العربية لمن يلقى إليهم

الخبر، فاقتضى الأمر أن يعتمد على الحجج العقلية و النقلية حسب نوع الثقافة والأيديولوجية التي يحملها المخاطب: الميل إلى العقل والمنطق الصرف، أو توظيفه ف تأويل النصوص الدينية واستثمار الوقائع "[37].

4-2 الخطابة السياسية:

ارتبطت الخطابة السياسية بجملة من الخطب التي كان القصد منها في بادئ الأمر (البدايات الأولى لظهور الرسالة) تعزيز شوكة الإسلام، لذا كان من الطبيعي أن تكون هاته الخطب ذات توجه ديني، وسرعان ما تم العدول عن ذلك ليتم الانتقال إلى الخطابة السياسية التي وجدت الأجواء المناسبة في ظل الصراع القائم حول السلطة في بيئة الإسلام." الخطب المرتبطة ببناء الدولة كانت أول أمرها أميل للخطابة الدينية لطبيعة الدولة الإسلامية. وهي تعليمية وتحميسية موجهة إلى الجنود الفاتحين في الغالب، وكانت الرسائل المتبادلة بين الخلفاء وقواد الجند هي الوسيلة الأولى المستعملة في علاج القضايا السياسية والعسكرية التي تهم سير الفتوح. وإنما برزت ملامح الخطابة السياسية أولا في الصراع حول الحكم، وكانت بذورها الأولى بعد موت الرسول مباشرة "[38].

" بعد وفاة الرسول، وما استتبع ذلك من صراع حول الخلافة وانشعاب السبل بين المسلمين حتى انتظموا في فرق متنازعة، لعبت الخطابة والمناظرة دورا بارزا في التدافع بين هذه الفرق. لذلك ستتخذ المناظرة خلال هذه الفترة وطوال العصر الأموي، طابعا دينيا وسياسيا "[39].

ويمكننا أن نستنبط من كلام "العمري" فكرة جوهرية غاية في الأهمية، تؤسس لمنطقة مشتركة يتقاطع فيها ما هو سياسي مع ما هو ديني، إذ يعد هذا الأخير دعامة يرتكز عليها رجال الدولة في توطيد الحكم وتقوية مواقفهم السياسية. " ويبدو هذا جليا حينما تدور المناظرة في مجلس السلطان، حيث يحضر ممثل السلطة السياسية. ويفضل أن تثار في مجلسه الموضوعات الدينية والعقدية لأنها تمس الحياة الاجتماعية وترتكز على الصراع الديني الذي يشكل أساس الصراع الاجتماعي الذي يشغل السلطة لتدعيم مركزها السياسي "[40].

ويقترح "العمري" تصنيفين للخطابة السياسية: تصنيف أول يكون الخطاب فيه حوارا بين الأنداد، وبذلك يسعى كل طرف إلى ترجيح كفة الحوار لصالحه خدمة لموقفه السياسي، وتعزيزا لرؤيته إزاء الموضوع محل النقاش والمناظرة.

" وبهذا فالمناظرة مدعوة إلى عقد أسلوب لغوي معين، وتراكيب خاصة تتلاءم مع الجو الثقافي الذي يحكم المكان أو المجلس حيث تدور المناظرة؛ فالمؤسسات الاجتماعية والانتماء الاجتماعي للحاضرين في المناظرة يؤثران بشكل أو بآخر في بينتها وجريان الحجاج فيها. وإذا كان المتحاورون أبطال المناظرات ينتمون دائما إلى طبقة المفكرين والعلماء، فإن أسلوبهم في المناظرة ليس واحدا في كل الحالات، بل يختلف من مجلس إلى آخر "[41].

وتصنيف ثانٍ يكون الخطاب فيه حوارا بين الراعي والرعية، حيث يحرص الراعي على إرضاء الرعية لكسب ثقتهم، ولا يكون ذلك إلا باللفظ اللين، وإقحام الجانب الديني لاستمالة القلوب وجلب التأييد، وبذلك ترتسم طبيعة الحوار في الخطابة السياسية بين البعدين السابقين: الحوار بين الأنداد، الحوار بين الراعي والرعية.

- **الحوار بين الأنداد:**

ظهر هذا النوع من الحوار بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فبدأت المشاورات والمناظرات بين المهاجرين والأنصار أيهم يصلح لخلافة الرسول. ويشير "العمري" إلى أن هذا النوع من الحوار ليس بجديد على العرب، فقد خاضوا فيه وتناولوه بكثرة في الجاهلية قبل الإسلام.

" دار أغلب هذا الحوار حول قضية الخلافة وشؤونها، واعتمد النصح والمشاورات والمناظرات. ولم يكن هذا الصنف من الخطاب غريبا عن العرب في حياتهم الجاهلية، سواء في شؤون الحرب أو الرئاسة. وكانت لقريش دار المشاورات في حالتي السلم والحرب يتحدث فيها الخطباء مدافعين عن وجهة نظرهم، ولذلك كان عاديا أن يعودوا إلى هذا التقليد بعد موت الرسول. غير أن الأمور ستأخذ مسارا آخر لاختلاف تركيبة المجتمع الإسلامي الجديد عن نظام القبيلة "[42].

لقد كانت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم هي المرحلة الحاسمة في تاريخ الإسلام، مرحلة كانت نقطة البداية لظهور الخطابة الاستشارية، التي سرعان ما ألقت بظلالها، خصوصا بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

" والمناسبة الثانية للخطابة الاستشارية التي جلس فيها الفرقاء يستمع بعضهم لبعض، وينطلق فيها الخطاب من الند للند كانت بعد قتل عمر بن الخطاب، حين انتهت الإقصائيات والتصفيات بين أعضاء مجلس الشورى إلى ترشيح عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ولم يكن الفصل بينهما سهلا " [43].

وبتوسع رقعة الإسلام التي شهدها العصر الأموي شكلت الأحزاب السياسية التي ما فتئت الخوض في مسائل الحكم والسيادة، وهذا ما مهد الطريق لظهور الفرق الكلامية التي أنتجت علم الكلام الذي خاض في عدة قضايا، حتى السياسية منها. وعموما فإن الحوار بين الأنداد يتطلب تقاربا في المستوى والكفاءة.

- **الحوار بين الراعي والرعية:**

يبنى الحوار هنا على تلك العلاقة القائمة بين الراعي والرعية، وحتى يضمن الراعي ولاءهم ورضاهم كان لزاما منهم أن يخاطبهم بخطاب لين، واضعا إياهم في منزلة مساوية لمنزلته، فيحاورهم محاورة الند للند. وهذا ما نوه به "العمري" في حديثه عن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. " فالعلاقة بين عثمان وبين الثوار علاقة بين راعٍ متمسك بأن تكون له الكلمة العليا للفصل، ورعية تنازعها هذا الحق وكان الوضع الذي يوجد فيه عثمان وقتئذ يفرض عليه أن يلين خطابه، ويقبل النصف في نفسه، ويخاطبهم مخاطبة الند للند " [44].

ويمكن أن نستدلّ بخطبة خليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد بيعته كنموذج يصلح لهذا النوع من الحوار. " أيها الناس: إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم "[45].

يتضح جليا أن هذا النوع من الحوار تحكمه علاقة الاندماج التي تبنى على تقريب المسافة بين الراعي ورعيته، وهذا من شأنه أن يوطد أركان الدولة، وخصوصا إذا كان الراعي ورعا ينطلق من منطلق ديني في مخاطبته للرعية، وهذا ما يعزز موقفه السياسي.

4-3 الخطابة الاجتماعية:

إذا ما كانت الخطابة الدينية منحصرة في مقامات التعليم والوعظ والمناظرة، فإن مقامات الخطابة السياسية تبنى على آلية الحوار الذي يأخذ أشكالا متعددة بحسب كفاءة ومنزلة الأطراف المتحاورة، ومع هذا فكثيرا ما تصادفنا خطب لا تمت بصلة لأي مجال ديني أو سياسي، وهذا النوع من الخطب يندرج تحت دائرة الخطابة الاجتماعية التي تتسع لمواضيع ومعان كثيرة متجذرة بعمق في تاريخ البشرية، ذلك أن أغلب العلاقات الإنسانية تقوم على طابع اجتماعي، ومن ثم

فإن المواضيع التي لا تجد طريقها إلى الخطابة الدينية أو السياسية فإن الخطابة الاجتماعية هي من تحتضنها وتكفلها. وهذا ما أشار إليه "العمري" بقوله: " يدرج الدارسون جميع الخطب التي لا يستوعبها الموضوعان السابقان، أي السياسة والدين تحت عنوان فضفاض: الخطابة الاجتماعية، خاصة خطب الإملاك وإصلاح ذات البين والمخاصمات القضائية والمشاركة في المسرات والأحزان. ويمكن تصنيف هذه الخطب على كثرة موضوعاتها إلى صنفين: خطب في موضوعات اجتماعية تتناول العلاقة بين الناس وتنظيم المجتمع مثل خطب الإملاك، والصلح والمخاصمات القضائية وهي في أغلبها ذات طبيعة موضوعية. وخطب ذات طبيعة وجدانية هدفها المشاركة والإشراك في المسرات والأحزان، كالتعزية والتهنئة ووصف المشاهد والبلاد " [46].

أورد "العمري" هنا وصفا دقيقا للخطابة الاجتماعية، فعدها خطابة فضفاضة وهذا ينم عن سعة مواضيعها وتعدد أصنافها، وتجدر الإشارة إلى دور السياق البارز في صناعة الخطاب ولا سيما الاجتماعي منه. " وتتدخل عناصر السياق الاجتماعية في تحديد استعمالات اللغة، وفي انتشار بعض الاستراتيجيات على حساب انحسار البعض الآخر، مثل استعمال استراتيجية التأدب، مقابل استراتيجية الجفاء، أو استراتيجية المراوغة، التي يمكن تسمية خطابها، تأدبا، بالخطاب الدبلوماسي، وإن كان يجري هذا الخطاب في مناخ اجتماعي يومي. وليتواصل المرسل مع غيره بالخطاب، عبر استراتيجية معينة، يقتضي أن يمتلك كفاءة تفوق كفاءته اللغوية، ليتمكن بها من تحقيق ذلك، ويمكن تسمية هذه الكفاءة، بالكفاءة التداولية "[47].

إن هذه الكفاءة التداولية يمكن أن نمثلها بقدرات تواصلية تمد الخطاب بملكات اجتماعية تمكنه من بناء خطابه الاجتماعي بناء من شأنه أن يحقق أهدافا تواصلية معينة. وعلى هذا الاعتبار فقد قسم "محمد العمري" المواضيع التي تتناولها الخطابة الاجتماعية إلى صنفين من الخطب: صنف ذو طبيعة موضوعية وآخر ذو طبيعة وجدانية.

- **خطب ذات طبيعة موضوعية:**

وهذا الصنف من الخطب يحتكم إلى المتلقي باعتباره الحلقة التي يدور حولها الخطاب الاجتماعي، إذ يتحول المتلقي إلى حكم ليفصل بين المتخاصمين في قضية ما، فيكتفي بداية بالاستماع إلى حجج كل فريق على حدة، وفي خضم هذا يسعى كل جانب إلى تعزيز موقفه وحججه في مقابل تفنيد ودحض حجج الجانب الآخر. " ويكون المتلقي في الصنف الأول

حكما ينظر في حجج المتخاصمين بحياد يجعلهما يعتمدان الحجة المقنعة، والأحوال المؤثرة كما يعتمدان التأثير الأسلوبي " [48]

وهذا النوع من الخطب يندرج ضمن المرافعات القضائية، وقد ضرب "العمري" مثالا عن ذلك يصور فيه تلك المخاصمة التي جرت بين أبي الأسود الدؤلي وزوجته حين وقع الطلاق بينهما، وأيهما أحق بالحضانة. فاحتكما إلى زياد بن أبيه أو معاوية بن أبي سفيان ليفصل بينهما، فيعمد كل منهما إلى حشد الحجج المنطقية والعقلية التي تصلح لمثل هذا النوع من المرافعة التي يمكننا أن نعدها مناظرة، وفي خضم هذا يقف الحكم موقف الحياد حتى يسمع ويسجل ملاحظاته حول القضية محل الخصام، وبعد تمحيص وتدقيق ومراعاة لأحوال المخاطبين ومقاصدهم ينطق بالحكم الذي يراه صوابا، وعن حيثيات هذه المرافعة يتحدث "العمري" قائلا: " وأشهر المخاصمات القضائية في العصر الأموي – وما وصلنا منها قليل – مخاصمة أبي الأسود الدؤلي و زوجته في موضوع الحضانة بعد الطلاق، فيروى أنهما احتكما إلى زياد أو معاوية (...) احتجت المرأة في هذه المرافعة بما بذلته في تربية الطفل، وما سبب لها من عناء تريد جزاءه، كما حاولت التأثير بما سيصيبها من حرمان إلى ما انتزع منها ابنها بعد أن أمَّلت نفعه. واعتمد أبو الأسود على المغالطة أولا ليوهن حجج المرأة، ثم احتج بمصلحة الطفل وتربيته الرجولية. وانتبهت المرأة إلى ضعف الجانب الأول من مرافعة أبي الأسود فعادت لتستغله ضده، ثم إنهما معا اعتمدا التأثير الأسلوبي، وانتبه الحكم إلى ذلك فقال: ودعني من سجعك " [49].

يؤكد "العمري" على الدور الفعال للحجة أثناء المرافعات والمناظرات التي تعقد بين الأطراف، إذ يحرص كل طرف على إيراد حججه موردا حسنا يكفل له حسم القضية لصالحه، كما قد يعمد الخطيب إلى المغالطة والإيهام لإحقاق حججه وإبطال حجج الخصم، وهذا ما يدخل ضمن أسلوب المناورة والمراوغة في الكلام، إلى جانب التوظيف البديعي للتأثير على الحكم والذي عبر عنه "العمري" بـ "التأثير الأسلوبي"، والذي قد ينعكس سلبا على قائله فيغدو حجة عليه لا له. وهذا ما حصل لأبي الأسود الدؤلي مع زوجته، حين أكثر من السجع لحسم القضية لصالحه. والنص الآتي يبين ذلك: " فقال أبو الأسود: أصلحك الله، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله، ويستحكم فتله . فقالت المرأة: صدق أصلحك الله، حمله خفا، وحملته ثقلا، ووضعه

شهوة، ووضعته كرها . فقال له زياد: اردد على المرأة ولدها، فهي أحق به منك، ودعني من سجعك "[50]. وإلى جانب هذا النوع من الخطب شاعت الخطب الخاصة بالزواج، حيث يعمد الخطيب إلى ذكر مناقب العريس وذلك سعيا منه إلى إقناع ولي العروس بمنزلة العريس الاجتماعية، فإن عدمها العريس، فإن الخطيب حينئذ يلجأ إلى ترجيح وتعزيز منزلته الدينية. " واهتم الخطباء في العصر الإسلامي بإظهار المزية الدينية خاصة إذا لم تكن للعريس مزايا اجتماعية أخرى "[51].

كما ظهر لون آخر من الخطب الاجتماعية – وهو ليس بجديد – تمثل في خطب الصلح، فقد عرفه العرب قبل الإسلام في الجاهلية، وهو ديدن الخطباء الذين يتوسطون بين المتخاصمين لإصلاح ذات البين. " وكان لهذه الخطابة مكانة خاصة في العصر الجاهلي، ولم تنقطع في العصر الإسلامي لاستمرار الصراعات القبلية " [52].

إلا أن هذا النوع من الخطب شديد الالتصاق بالبادية أكثر منه في الحضر على حد قول "العمري" نقلا عن "إحسان النص": [ويظهر أن أهل البادية كانوا أمهر في هذا اللون من الخطابة من أهل الحضر لاتصال موضوعاته بحياتهم وبيئتهم] [53].

- **خطب ذات طبيعة وجدانية:**

وهي خطب يعتمد فيها الخطيب على جانب شعوري محض لنقل جملة من الأحاسيس إلى المخاطبين وذلك لاستمالة قلوبهم، وفي هذا المقام لا يلجأ الخطيب كثيرا إلى الحجج، لأنه ليس في موضع المحاجج. " أما الخطابة في موضوعات المشاركة الوجدانية فإن وضع الخطيب فيها أشبه ما يكون بوضع الشاعر، فالاستمالة فيها مقدمة على الحجة في الغالب "[54].

ومما تقدم ذكره عن مقامات الخطابة (دينية، سياسية، اجتماعية) نجد أن "العمري" ينقلنا نقلات نوعية في مطلع حديثه عن كل لون من ألوان الخطابة، مشيرا إلى أن الحجاج يسجل حضوره بقوة في بعض الخطب ليغيب تماما في بعضها الآخر. وهذا يرجع أساسا إلى طبيعة وخصوصية كل جنس من أجناس الخطابة.

خاتمة:

وممّا تقدّم ذكره نخلص إلى أنّ الباحث "محمد العمري" ربط بلاغة الخطاب الإقناعي بما تحققه من القصدية التي يُراد بها التأثير، وهذا ما دفعه إلى اعتبار بلاغة الإقناع بلاغة لا تقوم على نسق واحد، بل هي متعددة متكثرة، وذلك راجع إلى طبيعة كل خطاب على حدة، وهذا ما يرجح

تأرجح البلاغة العربية طيلة حقب زمنية متعاقبة بين عدّة مفاهيم جعلت كلّ مفهوم منها يركن إلى زاوية بعينها. وبناءً على ذلك بنى العمري تصوراته حول بلاغة الإقناع على استحضار ذلك الكمّ البلاغي العربي، وبسطه للدراسة للوقوف على عنصر الإقناع فيه، والذي ظهر بجلاء في كتابات الجاحظ ومن جاء بعده، ليبين " العمري" بذلك على الحضور البارز لعنصر الإقناع في بلاغتنا العربية، وتحديدا في مجال الخطابة (الدينية، السياسية، الاجتماعية) وطبيعة كل مقام منها.

ويمكن أن نلخّص النتائج التي خرج بها المقال في النقاط الآتية :

_ أنّ بلاغة الإقناع لا تعترف بالأحادية في النسق.

_ تغيير وجهة البلاغة، من بلاغة تُعنى بالفهم والإفهام، إلى بلاغة تُعنى بالصورة (بلاغة الصورة).

_ اتّخاذ الخطاب الإقناعي أشكالا عديدة:(مناظرة، خطاب شعري، خطاب حواري...).

_ الخطاب الإقناعي خطاب يبسط نفوذه وهيمنته على جميع التخصصات.

_ دلالة المقام دلالة تلقي بظلالها على دائرة التخاطب في المجال التداولي.

هوامش:

[1] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2002، ص 15.

[2] المرجع نفسه، ص 19.

[3] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، إفريقيا الشرق، المغرب، 2013، ص 23.

[4] المرجع نفسه، ص 17.

[5] آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 47.

[6] حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2014، ص 26.

[7] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2012، ص 40.

[8] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، مرجع سابق، ص 38.

[9] المرجع نفسه، ص ص 12-13.

[10] المرجع نفسه، ص 13.

[11] فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، ترجمة: محمد مشبال، عبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، ط1، 2003، ص 10.

[12] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، مرجع سابق، ص ص 36-37.

[13] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، مرجع سابق، ص 33.

[14] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، مرجع سابق، ص 38.

[15] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص 194.

[16] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، مرجع سابق، ص 33.

[17] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1965، ص 136.

[18] محمد العمري: المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات، ع5، خريف-شتاء 1991،ص11، نقلا عن:عبدالهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب،ج2، دار كنوز المعرفة، عمان، ط2، 2015، ص 224.

[19] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، مرجع سابق، ص 200.

[20] عبدالهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ج2، مرجع سابق، ص 223.

[21] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، مرجع سابق، ص 55.

[22] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص ص 40-41.

[23] عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2013، ص 150.

[24] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، مرجع سابق، ص 55.

[25] محمد العمري، تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص 37.

[26] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، مرجع سابق، ص 57.

[27] محمد العمري: دائرة الحوار ومزالق العنف، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2002، ص7. نقلا عن: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، مرجع سابق، ص 59.

[28] باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ترجمة: أحمد الودرني، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2009، ص 6.

[29] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص ص 40-41.

[30] عبدالهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ج2، مرجع سابق، ص 225.

[31] حسن المودن، مرجع سابق، ص 348.

[32] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق ، ص 41.

[33] المرجع نفسه، ص 44.

[34] المرجع نفسه، ص ص 44-45.

[35] محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، افريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص ص 196-197.

[36] عبدالهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ج2، مرجع سابق، ص ص 257-258.

[37] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص 46.

[38] المرجع نفسه، ص 50.

[39] عبد اللطيف عادل، مرجع سابق، ص 138.

[40] مجموعة من المؤلفين، الحجاج مفهومه ومجالاته،ج2، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013 ، ص 1072.

[41] المرجع نفسه، ص 1072.

[42] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص 51.

[43] المرجع نفسه، ص 52.

[44] المرجع نفسه، ص 55.

[45] أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب، ج1، مطبعة مصطفى البابي وأولاده، مصر، ط1، 1933، ص 67.

[46] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص62.

[47] عبدالهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ج1، دار كنوز المعرفة، عمان، ط2، 2015، ص 95.

[48] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص 62.

[49] المرجع نفسه، ص ص 62-64.

[50]أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ج2، مطبعة مصطفى البابي وأولاده، مصر، ط 1933، ص ص 376-377. توجد صورة أخرى لهذه المرافعة وكان الحكم فيها معاوية، انظر نفس المرجع ص 377.

[51] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص 65.

[52] المرجع نفسه، ص 66.

[53] إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دار المعارف، مصر، 1969، ص 239 نقلا عن : في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 66.

[54] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص 67.